

في الأدب المقارن

المعنى والأسلوب

في الأدبين العربي والإنجليزي

للأستاذ غفرى أبو السمود

المعنى الصادق الرفيع والأسلوب المحكم الجليل هما قوام كل أدب خليق بهذا الاسم ، لا يغنى أحدهما إذا غاب الثاني ؛ فلا بد من شعور عميق ، أو تفكير ثاقب جدير ببناء الإنشاء والقراءة ، ولا بد بجانب ذلك من عبارة منسجمة جميلة تعرض المعنى على أحسن وجه وأجبه إلى النفوس ؛ وكبار الأدباء في شتى الأمم يجمعون دائماً بين الفكر الواسع المتصرف في شؤون الحياة ، وبين المقدرة اللغوية التي تذلل لهم أعنة البيان ، ويتصرفون بها في الألفاظ والتراكيب ، ويكون لكثير منهم فضل ترحيب جوانب اللغة

تكرارها منذ سقوط غرناطة ولم يليها غير إخوانهم المجاهدين في إفريقية ، فقد استطاعت جموع جرته مخاطرة منهم أن تجوز الشواطئ الإسبانية ومنهم فرقة من الترك المرتزقة وإن تهرع إلى نصرة المنكوبين

وهكذا عاد النضال إلى أشده ، وخشى الأسبان من احتشاد المورييسكيين في البيازين ضاحية غرناطة ، فصدر قرار بثشريدتهم في بعض الأنحاء الشمالية ، وكانت مأساة جديدة مزقت فيها هذه الأسر التعسة وفرق فيها بين الآباء والأبناء ، والأزواج والزوجات في مناظر مؤثرة تذيب القلب ، وسار المركز لوس فيليس في نفس الوقت إلى مقاتلة المورييسكيين في سهول المنصورة على مقربة من أراضى مرسية ، ونشبت بينه وبينهم عدة وقائع غير حاسمة ، ولم يستطع متابعة القتال لنقص في الآهبة والمؤن وكان بينه وبين زميله منديخار خصومة ومنافسة كاتنا سبباً في اضطراب الخطط المشتركة ، وأتهم منديخار بالعطف على المورييسكيين فاستدعي إلى مدريد ، وأقيل من القيادة ، واتخذت مدريد خطوتها الجديدة الحاسمة في هذا الصراع الذي لا رحمة فيه ولا هوادة

(البحث بقية)

(والقتل منوع)

محمد عبد الله هنانة

ولكساب تعبيراتها جدة ومرونة ، وإعطاء بعض العاقلها منزلة سامية لورودها مورداً حسناً في بعض آثارهم ، وشأن الأديب الكبير في ذلك شأن غيره من رجال الفنون ، فالمصور مثلاً لا يبلغ الذروة في فنه حتى يجمع إلى خصب مشاعره بصراً بتأليف الألوان والأصباغ ، وكل فنان لا بد له من الجمع بين رقة الشعور وبين البصر بالآلات التي يكون بها أداء ذلك الشعور

والفكر واللغة ، أو المعنى واللفظ ، شديداً التوثق والتوشج ، فلا ندحة للأديب عن التأثير بروح اللغة التي يكتب فيها وقرائنها على مدى الأجيال ، ولا سبيل له إلى الإنشاء والنظم فيها حتى يختلط بروحها ، وتمتزج أفكاره بالمفردات والأساليب التي تهيئها له اللغة ؛ والأديب الصانع يختار من المفردات تلك التي تنهض بأفكاره ومشاعره في أوجز لفظ وأحكمه وأوضحه بياناً ، بما تمتاز به تلك المفردات من أجواء من المعاني رحبة تجمعت حولها على مرور الأجيال وتوالي الاستعمال ، حتى غدت يثيرها مجرد ذكر تلك المفردات على نحو خاص ، وذلك ما يجعل آثار بعض الأدباء المقتنين والشعراء المجودين متعذرة الترجمة إلى غير لغتها ، لتعذر نقل هذه الأجواء المعنوية برمتها من لسان إلى لسان ، بل يتعذر أحياناً الفريق بين المعاني والأساليب التي هي مفرغة فيها .

لتمازجها تمازج الروح والجسد

ويبلغ الأدب كماله حيث يسود القصد والاعتدال بين اللفظ والمعنى ، فإذا استبد المعنى بالأهمية كلها وتحيف اللفظ خرج الأثر المنشأ من حظيرة الأدب إلى حيز العلم ؛ وإذا تحيف اللفظ المعنى وصار غاية في ذاته مبطلة قيمة الأثر الأدبي ، وأصبح أشبه بالزخرف والصناعة منه بالفن السامي . ويغلب الاحتفاء بالزخرف اللفظي في عهدة دولة الأدب ، إذ يكون الشعر مجرد أهازيج وقواف موسيقية نافهة المعاني ، وفي عهدة انحطاط الأدب حين ينصرف الأدباء عن لباب الحياة إلى القشور ؛ وبالزخرف اللفظي والبراءة اللغوية والأسجاع والإيقاع الموسيقي يكلف الأديب الناشئ أول عهده بالأدب ، وكلما نضجت نفسه وحصف ذهنه بتجربة الحياة واستيعاب المعارف تحول اهتمامه إلى المعاني والحقائق والتزم اللفظ في آثاره منزلة الصحيحة ، وهي كونه وسيلة للمعنى لا غاية في ذاته وقد عرف أنطاب الأدب الإنجليزي بوسع بصرم بامرار لغتهم ، وإليهم يرجع فضل توطئة جوانبها وتعميد مسالكها ، ولكل منهم في هذا الباب أثر : فشكسبير قد استخدم في رواياته أكبر عدد من مفردات اللغة استخدمه أديب ، وصرف تلك المفردات على شتى الوجوه ؛ وسبسر اغنى اللغة بما أدخل فيها من

ألفاظ جديدة لم تعرفها قبله ؛ وملتون أصبح اسمه علما على ضرب من النظم عذب الموسيقى نظم الزين ؛ وبوب بلغ الغاية من إحكام الصناعة وجزالة الأسلوب ؛ ووردزورث كان دائم التجارب في الأساليب يحاول أن يشق للشعر أسلوباً جديداً ؛ وتيسون تفنن في استخدام الالفاظ وتحوير التراكيب يؤلف بها روائع الصور الشعرية ، ولا تزال مخطوطات بعض أولئك الأدباء موضع دراسة النقاد والأدباء ، يتفقهون بها في أسرار اللغة ويزدادون بصراً بخصائص الالفاظ والتراكيب ، ويرون كيف يحل لفظ محل لفظ فنشرق به دياحة البيت من الشعر ويسفر به وجه المعنى جليلا بعد خفاء والنيات

على أن أولئك الأدباء برغم احتفائهم بالأسلوب ذلك الاحتفاء لم يغلبه على المعنى ولم يجعلوه غاية في ذاته ، ولم يصبح الأدب في أيديهم براعة في اللفظ وتأقفا في النسخ ، بل ظل اللفظ لديهم دائماً خادماً للمعنى ، وظل غرضهم الأول من الانشام الانصاح عن الفكر والشعور . ولم يسرف الأدباء في الاحتفاء باللفظ إلا في عهد المخطاط الشعر في بعض القرن الثامن عشر ، في حقبة لم تنجب شاعرا كبيرا ، ولم يحظ بالشهرة في حياته والذي ذكر بعد موته من أدباء الانجليزية إلا من أهلته لذلك نظرة في الحياة صادقة عميقة ، ولم تكن كل بضاعته أسلوباً مزخرفاً ، منمعا ، بل عرف من كبار الشعراء من لم يكن يولى أسلوبه كبير احتفاء ، ومع ذلك رفعه فكره الجوال في آفاق الحياة ، ونفسيته الجياشة بأشأت الاحاسيس إلى قمة المجد ، فيرون كان كما قال عن نفسه لا يعاود النظر في بيت شعر خطه ، ووردزورث نظم كثيراً من بدائع شعره في أبسط لفظ يستعمل في النثر والنحدث ، وهاردي لم يكن شعره إلا نثراً جيد النظم عارياً مجرداً من تلك الالفاظ الشعرية ذات الاجواء المعنوية ، ومن ثم لا يسمو به النقاد إلى طبقة الفحول كشكسبير وملتون ، بل يزلونه الطبقة الثانية بين الشعراء ، وهذا الأسلوب العاري المجرد يزداد شيوعاً في العصر الحديث

أما في العربية فكان الأمر على نقيض ذلك : فلم يكد يكون بين كبار أدبائها بعد دخول الأدب طوره الفني من أهمل الأسلوب واحتق بالمعنى وحده ، وإن كان أكثرهم ليقدم الأسلوب على المعنى ويحتق للفظ ورئنه أي احتفاء وإن تضام المعنى وطقه ، فإذا كان النثر العربي يبلغ ذروته من الكمال على أيدي ابن المقفع والجاحظ ، والشعر العربي يجرى إلى غايته في آثار المتنبي وابن الرومي والمعري ، حيث يجتمع صدق النظرة وجمال الأسلوب ، فإن غيرهم من مشهورى أدباء العربية إنما نه ذكروهم لبلاغتهم اللفظية ،

لا لفلسفة في الحياة معدودة ، ولا لرسالة في الأدب عتيدة . ومن أولئك البحترى ومن نحنا نحوه من الشعراء والمداحين ، والصاحب ابن عباد ومن سلك دربه من المنشئين المسجعين ؛ فالناظر في الآيات الآتية من نظم أشهر شعراء العربية ، يرى أن حظها من المعنى ضئيل ونصيبها من جزالة الأسلوب ورزين اللفظ وعذوبة الموسيقى كبير ، قال أبو نواس في مدح بعض الوزراء :

عباس عباس إذا احتدم الوغى والفضل فضل والربيع ربيع
وقال البحترى في النسيب :

لما مشين بذى الأراك تشابهت أعطاف قضبان به وقنود
ومنى يساعدا الوصال ودهرنا يومان يوم نوى ويوم صدور
وقال أبو تمام في رثاء طفلين :

ما زالت الأيام تخبر جاهلا أن سوف تفجع مسهلاً أو عاقلاً
بدران شام الله أن لا بطلما إلا ارتداد الطرف حتى يأقلاً
إن الفجعة بالرياض نراضرا لأجل منها بالرياض ذوابلاً
نصيب هذه الآيات جميعها من الفكرة البعيدة أو النظرة المستقلة أو الشعور الصميم ضئيل . وماذا في قول أبي نواس إن العباس عباس والفضل فضل والربيع ربيع ، إلا أنه ظرف وأحسن نظم تلك الاسماء مزدوجة في سلك البيت ؟ وأى الناس لا يعبس إذا احتدم الوغى ؟ ولو قال : عباس بسام لكان وصفه بالشجاعة التي لا تحفل بالموت المحدث . ثم ماذا من جديد في جمع البحترى بين الغصون والفردود وشكواه النوى والصدود ، أو في تشبيه أبي تمام للطفلين بالبدرين الآفلين مرة وبالروضين المصوحين أخرى ؟ إنما فضيلة هذا الشعر كله حسن اختيار اللفظ النقي وجمال الموسيقى ولطافة التقسيم والمقابلة ، أما المعنى فلا عمق فيه ولا ابتكار

فلا احتفاء باللفظ ولو على حساب المعنى قد تزايد في العربية تدريجاً مع دخول الأدب طوره الفني ، طررت الدوين والتجويد ، وتزايد الولع بالنسجيع والمطابقة وغيرها من المحسنات اللفظية . وكاد الولع بالسجع عند الصاحب بن عباد فيما روى يبلغ حد الجنون ، حتى قيل إنه عزل قاضياً بذاجية يقال لها (قم) لأنه أراد أن يتم سبعة فقال : أيها القاضي بقم ، قد عزلك بقم . وتكلف في بعض أسفاره كما حدث عنه ابن العميد أن يذهب إلى قرية غامرة ذات ماء ملح يقال لها النهار لا شئ إلا ليكتب إليه : كتابي هذا من النهار ، يوم السبت نصف النهار ، وما زال اللفظ يستبد باحتفال الأدباء ويطنى على المعنى ، حتى ارتد الأدب في عصور التدهور زخرفاً لفظياً صرفاً ، ولم يبق من المعنى إلا هذيان كهذيان المخالطين

إسم ذلك القائد أو صفته ، فما كان لكل ذلك أى دخل في نظم مثل ذلك القصيد :

وجرد من آرائه حين أضربت به الحرب حداً مثل حد المناصل
وسارت به بين القنابل والقنا عزائم كانت كالقنا والقنابل
وقد ظلمت عقبان أعلامه ضحى بعقان طير في الدماء نواهل
فكل هذه المعاني الدائرة حول شجاعة القائد وأمرائه التي
تفوق الجيوش ، وعزائمه التي تفل السيوف ، والعقان التي تتبع
أعلامه لنهبل من دماء أعدائه ، كل هذه المعاني مطروقة من قبل
أبي تمام ، مذكورة بعده في ميمية المتنبي المشهورة وغيره
من مدائحه لسيف الدولة ، ولا غرو فقد غدت أكثر معاني
الآداب في أبواب المدح والهجاء والفخر والوصف والحكمة
وغيرها ، تراناً متداولاً بين الشعراء من جيل إلى جيل ، وإذا تفنن
الشاعر صاغ بعضه صياغة جديدة أو ولد منه بعض التوليد ، فإذا
اتفق له أن صاغ معنى قديماً صياغة جديدة يفوق صياغة صاحبه
الأول صفق له النقاد وقالوا سرقة مغفورة ولص ظريف هو
أولى بالمعنى من صاحبه لأنه أجود لفظاً ، كما قيل في بيت البحرى
في مدح المتوكل :

فلوان مشتاقاً تكلف فوق ما في وسعه لمشى إليك المنبر
أخذه وتصرف فيه من قول أبي تمام :

تكاد مقابله تهش عراسها فتركب من شوق إلى كل راكب
كان الشعراء إذا صرفوا القول إلى المديح أتوا بالمعاني الجوفاء
الهزيلة ، واحترفوا باللفظ يدارون بزخارفه ركازة المعنى ، وكان
أكبر شعراء العربية في طور الآداب الفنى مداحين ، فامتلاً الآداب
العربى بذلك الضرب السقيم المعاني الطنان الالفاظ ، وإنما كان
الشعراء يبتكرون المعاني الجديدة يلبسونها من اللفظ أجل لبوس
حين ينظمون في غير المديح من الوجوه التي يدفع إلى النظم فيها
شعور صحيح وفكر ثاقب ، فكانت من ذلك حكم المتنبي وأوصاف
ابن الرومى ونظرات المعرى ، كما ظهرت في الآداب العربى تلك
الظاهرة الفريدة ، وهى أن أشعار كثير من المقلين ومن يعدون
في الطبقة الثانية من الشعراء كالصولى والامام الشافعى ، تروى
النفس بصفتها وحصافتها أكثر مما تروى أشعار المكثرين
المشهورين ، لأن أولئك المقلين كانوا لا ينظمون الشعر إلا تلبية
لحافز نفسى ، وهؤلاء المكثرين كانوا ينظمون ابتغاء التوال

ومن عوامل احتفاء أدباء العربية باللفظ أيضاً ، أن الآداب
العربى في ظل الدولة الإسلامية كانت أكبره أدباً بلاطياً

فلا نبالغ إذا قلنا إن المعنى كان في أزهر عصور الأدب العربى
يحتل المكان الثانى بعد اللفظ ، وهذا واضح في أقوال النقاد .
قال الآمدي في موازته بين الطائيين : « وليس الشعر عند أهل
العلم به إلا حسن الدأى وقرب المأخذ واختيار الكلام ووضع
الالفاظ في مواضعها فان اتفق مع هذا معنى لطيف أو
حكمة غريبة أو أدب حسن فذلك زائد في بهاء الكلام ، وإن لم
يتفق فقد قام الكلام بنفسه واستغنى عما سواه » . وقال الخليلي في
سياق حديث له أورده ياقوت في ترجمة صاحب بن عباد :
« الشاعر يطلب لفظاً حراً ومعنى بديعاً ونظماً حلوا وكلمة رشيدة
ومثلاً سهلاً ووزناً مقبولاً » ، فكل الاهتمام هنا موجه إلى لطافة
النسج والتجويد لا إلى عمق الفكرة والشعور

كان الشعراء في الجاهلية وصدر الإسلام يرسلون القول على
سجته في نديج يحكم يرمون به إلى بيان أفكارهم وشعورهم على أقصد
سبيل وأقرب ، فلما كان عهد التحضر والتثقف أحاطت بالآداب
عوامل أدت إلى تقديم اللفظ على المعنى ، منها فساد اللغة بمخالطة
الاعاجم فاشتد الحرص على طلب اللغة الصحيحة وإتقان أساليب
العرب الانحاح وتقليد قول المتقدمين . وزاد هذا الحرص شدة
اشتغال الاعاجم أنفسهم بالآداب وجدتم في تحصيل لغة العرب
ولسان الكتاب المنزل ، وسبقهم في العلوم والتأليف ، وتقاسمهم
بمحاكاة أدب الجاهلية وصدر الإسلام ، وتظاهروا بالقدرة على
النصرف في الالفاظ والتراكيب ، فكان مهمهم صحة التعبير وبلاغته
قبل صدق المعنى وعمقه

وعما زاد الأدباء انصرافاً إلى اللفظ وتجويده واختيار الأسلوب
والإقتنان في صياغته وتحويره ، إنتشار المدح والتكسب بالآداب ،
فإنه لما كانت الفضائل الإنسانية ، ولا سيما تلك التي كانت
مشهورة مطلوبة في المجتمع الإسلامى ، محدودة معروفة ، كان مجال
القول فيها محدوداً ومجال الابتكار ضيقاً ، فطلب الشعراء المداحون
السمة في جانب اللفظ ، يتأنقون في تزويقه وترصيعه ، ويمتاضون
عن الابتكار في المعاني بالأوزان الرشيقة والتوافيق الرخيمة
والنسيجات اللبقة ، والتقسيم والمقابلة والسجع والتجنيس . وهذه
المحسنات البديعية - ما راق منها وما سمج - تحفل مدائح أبى نواس
وأبى تمام والبحرئى والمتن . وابن الرومى ، إذا جردت من زيناتها
اللفظية لم يبق من نسيبها الاستهلال ومدحها المفرق شئ ذو بال ؛
من ذلك قول أبى تمام في مدح بعض القواد ، ولا داعى لذكر

التشبهات والمجازات ، بحيث يستطيع المتكلم من كل هذا أن يجمع حوله المستجدين ويستولى على الآلباب ، دون أن يتدع في المعنى أو يتعمق في الشعور . كما تصرفك عذوبة اللحن المرسقي عن تفاحة المعنى المنفى به ؛ وقد استغل كتاب العربية كابن العميد والصاحب والبدیع والحريري ثروة اللغة هذه أبعد استغلال ، وجاءت رسائلهم ومقاماتهم معارض مانحة بتلك الكنوز العظيمة

ففي الأدبين العربي والانجليزي آثار باللغة حد الفن من الصدق والعق والجمال ، تجمع بين حرارة الشعور وجودة الأسلوب ؛ غير أن الأدب العربي لإحاطة تلك الظروف والعوامل به ، أحفل من الأدب الانجليزي بالآثار التي يغلب فيها اللفظ على المعنى ، وتظهر الصنعة على الطبع ، وتبدو فيه دلائل الاحتفاء بالأسلوب واضحة ، حتى في مخلفات أكبر أدبائه وأعظمهم حظاً من النبوغ والشاعرية . ويعد بين أقطابه أفراد لم تؤثر عنهم فلسفة في الحياة خاصة أو شخصية مستقلة ، ولم يرفع ذكراً إلا اقتدارهم على تصريف الكلام ، ويمتلىء الأدب بآثار أولئك الأدباء التي تعجب بحلاوة أسلوبها وإن لم تعجب بعمق فكرتها ، فلنا نسرف إذا قلنا في الجملة إن الأدب العربي كان أدب أسلوب ، والأدب الانجليزي أدب معنى

فخرى أبو السعود

وأرسنقراطيا ، مكفوفاً عن شؤون المجتمع ، منزوياً عن أكثر مواضع القول وبجالات الفن ومسارح الأدب ، من وصف الطبيعة والتأليف التاريخي الفني ووصف آثار الأقدمين في عالم الحضارة والفنون ، وسبحات الخيال في عوالم الحقيقة والخرافة ، وتصوير آثار الرحلات والمغامرات ، قلما حرم الأدب طرق هذه المواضيع الجزء الخصبة الحافلة بمناوح التفكير والشعور والقول ، لم يبق لديه كبير مجال للإبتكار في المعاني ، فتوفر على الاقتنان في الالفاظ يدور بها في مجالاته المحدودة الموروثة عن المتقدمين .

وزاد مجال القول ضيقاً حرمان الأدب العربي من الاطلاع على الأدب اليوناني ؛ فلو كان على اتصال مستمر بذلك الأدب ، لتمهدت أمامه منادح للقول من جهة ، ولا نصرف اهتمامه من جهة أخرى إلى المعاني دون الالفاظ ، لأن المعاني دون الالفاظ هي التي تشارك فيها آداب الأمم المختلفة ، أما أدباء العربية الذين لم يطلعوا على أدب أجنبي راق ، فكان اعتدادهم بتفوق اللغة العربية على اللغات شديداً ، وكانت ألفاظها وتعبيراتها تقوم في مخيلتهم مقام الحقائق المنجزة ، وكان التجويد في استخدام تلك الالفاظ والتعبيرات في الأبواب المطروقة من قديم غاية الأديب ، فظل بيت زهير بن أبي سلى الذي قاله في عهد البداوة ، يصدق على شعراء العربية في أوج عهد الحضارة والثقافة :

ما أرانا نقول إلا معاراً أو معاداً من قولنا مكروراً
ثم لاشك في أن حياة الترف وزخارف العيش التي انغمس فيها العرب بعد الفتح ، وأبهة البلاط التي كان الأدباء يحومون حولها ويتزاحون في مواكبها ، كانت من أسباب شيوع الزخرف في الأدب الذي هو مرآة للحياة المحيطة به ، فإذا كان الأدب الفارسي قد كان في ذلك العهد من الضالة بحيث لم يؤثر كثيراً في أدب العرب ، فقد أثر الفرس في الأدب العربي بمظاهر الترف والبذخ المادية التي نقلها عنهم العباسيون وتركت آثارها في الأدب ، وهذا الترف الأدبي كالترف المادي دليل الرخاوة والضعف ، والسير إلى الانحلال .

وقد ساعدت طبيعة اللغة العربية ذلك الميل الذي غلب على أدبائها ، الميل إلى التأني في اللفظ ، وتنقيه بالمحسنات التي ينو المعنى تحتها ويتصامل ، وذلك لما للغة العربية من بلاغة أصيلة وموسيقى نغمة ، وما لألفاظها وتراكيبها في النفوس من روعة وبهاء ، وما لأوزان الشعر العربي وقوافيه من رصانة وجلال ، وما للغة من ثروة طائلة وغنى بطرق الاشتقاق وامتلاء بالمتراكبات ، واتساع لصنوف

في الطريق

كتاب جديد يصدر في سبتمبر

بقلم الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

أكثر من ٦٠ قصة في ٥٠٠ صفحة

قيمة الاشتراك فيه ١٠ قروش ، الثمن بعد الطبع ١٥ قرشاً

ترسل قيمة الاشتراك بعنوان المؤلف

بشارع فاروق رقم ٢٢١ بمصر

الاشتراك بفصل في منتصف أغسطس